

استهداف العروبة

فندي بالحاج

رئيس الملتقى الثقافي العربي الأوروبي بفرنسا

غزت أوروبا الوطن العربي في القرن الثامن عشر، واستكملت استعمار معظم أقطاره وبلدانه في القرن العشرين بعد الحرب الأوروبية الأولى، وسعت الى فرض حضارتها على أمتنا العربية من خلال فرض نمط حياة الحضارة الغربية عبر الفلسفة الفردية، ووجهها الاقتصادي النظام الرأسمالي الذي يقوم على الربح والمزيد من الربح، وربطت السوق العربية بالاقتصاد الأوروبي، فتحوّلت أمتنا الى مصدر للمواد الأولية الثمينة ثم الى مستهلك لها. وتمكنت من تكوين نخبة ثقافية وفكرية تؤمن بمبادئها وتحلم الى تحويل الوطن العربي نسخة مشوهة للحضارة الغربية.

انتصارا لهذا المشروع التفتيتي، شجعت كل مظاهر العلاقات سواء ما بعد قومية وما قبلها لضرب رباط القومية العربية، تارة باسم الدين الاسلامي وتارة أخرى باسم وحدة الطبقة العاملة، او من خلال التركيز على العلاقات العشائرية والقبلية والطائفية والعائلية. وتعددت محاولات احياء الفرعونية والبابلية والبربرية... وكل ما يمكن ان يساهم في ضرب فكرة القومية العربية وفكرة الدولة العربية الواحدة تم توظيفه.. واصبحت الدعوة الى الارتباط باوروبا و بالغرب تمثل لدى البعض بديلا عن الرابطة القومية العربية.

كانت محاولة قومية القطرية والتي تسمى بـ "الوطنية" من خلال تأجيج المشاعر الوطنية المعادية للعرب والعروبة، وأججت النزعات الاقليمية بالتأكيد على الخصوصيات المحلية والاقليمية، بديلا عن القومية العربية.. فمنعت تعليم اللغة العربية وانتصرت للفرنكفونية والانكلوفونية وضرب التعليم الديني بالعربية وشككت بقدرة اللغة العربية على مواكبة التطورات العلمية ودعت إلى إحلال العامية مكانها تسهيلاً على الناس وخدمة للثقافة العامة(!!) وشجعت تدريس اللهجات تحت شعار اللسانيات، وتقليص دور اللغة العربية في العلوم الانسانية وفي العلوم الصحيحة تحت شعار مواكبة العصر، ونصبت حكومات تتبنى وتدافع عن هذه النزعات القطرية لتكون في تناقض مع الاستراتيجية العربية الواحدة التي تدافع عن مصالح الأمة العربية.

ضرب حركة القومية العربية

لقد حاولت هذه الموجة الغربية ضرب واستئصال مكونات الأمة الحضارية ونسيجها الاجتماعي من لغة ودين ومنظومة من القيم، وشنت حملة ضد مكونات هوية الأمة العربية وضامن وحدتها الثقافية والفكرية والنفسية، وشنت أكبر عملية نهب وسرقة لثروات الأمة العربية الخ... ولاشك أن المقام لا يتسع لعرض جهود أوروبا في فرض نموذجها الحضاري على أمتنا حيث أثار ذلك معارك ضارية في مجالات كثيرة ومتعددة، وكانت النتيجة أن أمتنا منعت ثم امتنعت في قبول ارادة الهيمنة وأفشلت التغريب في شكله الأوروبي، وانطلقت ارادة التحرير من قبل شباب ووقوى الأمة.

وجاءت ثورة يوليو/ تموز لتعبر عن هذه الارادة الصلبة في التخلص من السيطرة الاستعمارية وتوسعت شرارة التحرير من المحيط الى الخليج ولم يكن الغرب بوجهه الأوروبي والأمريكي ليقبل هذه الصحوه وهذه اليقظة العارمة التي هبت على العرب فتحرك وأتباعه في الوطن العربي وافتعل العديد من المشكلات في داخل الوطن لإعاقته واستنزاف قواه وسقطت بكل أسف قوى سياسية من المفروض أن مكانها في الخط المقاوم للمستعمرين وفي خندق المدافعين عن هوية الأمة. وخطأت قيادات الثورة في طريقة التعامل مع جزء أساسي من حركة التحرر العربي، وتمكنت القوى المناهضة لنهضة الأمة من احداث شرخ لا تزال الأمة تعاني من آثاره. حدثت البلبله : فتم استعداد الثورة التي رفعت راية الهوية العربية والاسلامية من ذات القوى التي ترفع شعار الهوية. وشن العدو الغادر حربا أولى سنة ١٩٥٦ انتهت بالفشل على المستوى السياسي بالرغم من الهزيمة العسكرية وبعد عشر سنوات شنت قوى الظلم حربا أخرى في ١٩٦٧ وكانت هزيمة قاسية لأمة لاتستحقها. وقد كانت هذه الضربة مقدمة لمتغيرات كبرى في الوطن العربي.

بعد وفاة عبد الناصر وقرار فض الاشتباك الذي اتخذته القوى القطرية انطلقت القوى المتحكمة الجديدة بعد ان فتحت لها أنابيب الدعم تسرح وتمرح بلا رادع وبلا دليل وغلبت المصلحة القطرية على المصلحة القومية ولقد كان الربع الأخير من هذا القرن، الفرصة الأخيرة لدعاة الاقليمية والانزواء القطري. وبالرغم من سخاء الحامي في شكل مساعدات وقروض كانت النتائج كارثية فلا يخلو اقليم من شلل يكاد يكون عاما أصاب الحياة السياسية والاقتصادية والفكرية، وتحول الوطن العربي الى متحف والى مختبر لتجارب التنمية الفاشلة. وكان الانسان العربي هو الذي يتحمل هذه النتائج الكارثية، فمن انتشار جيوب الفقر وأحزمة الموت البطيء التي تحيط بالمدن العربية الى الفشل السياسي والاقتصادي الى انتفاضات الجوع التي امتدت على ساحة هذا الوطن.. الى تلك السجون التي أصبحت ذائعة الصيت وعملية القتل الفكري والتدمير الثقافي لمكونات هذه ال أمة..

هذا هو السجل الذي يمكن أن تتباهى به القطرية الفاشلة.. وهكذا سقطت شعارات الاستقلال والتحرر يوم اسقطوا شعار الوحدة وفشلت التنمية المستقلة يوم تمسكوا بطابعها القطري والاقليمي.. وفتحت الأرض العربية للقواعد الأجنبية في عصر انتهاء سياسة الأحلاف يوم عجزت هذه القطرية عن الاحتماء بشعبها فكان لابد من مظلة تحميها من مطلب التوحيد والديمقراطية... ولم تكن عملية غزو العراق الا نتوجها لهذه السياسات المرتبطة بمبدأ القطرية أولا... هل هناك أكثر مهزلة من أن يرفع المحتل شعار "التنمية والديمقراطية" وهو الذي يقتل الجماهير ويستأثر بامكانيات الشعب المادية.. في مواجهة أنظمة هو اختلقها وابتدعها ودافع ويدافع عن وجودها هل هذه الدعوة الجديدة التي ترفعها القوى المعادية بالتحافها غطاء الديمقراطية وحقوق الانسان جاءت لسحب البساط من تحت أقدام معارضة كبيرة ومنتامية وان كانت تفتقد للتنظيم.. هل قدر لهذه الأمة ان يتم تفتيت ماتبقى من وحدة اجزائها تحت اسم الديمقراطية وحقوق الانسان؟

القضاء على الفكرة القومية

الادارة الأمريكية المنتصرة بانتهاء "الحرب الباردة" تعتبر الوطن العربي المنطقة الأكثر حيوية، وهي تسعى الى احكام السيطرة التامة عليها، وتعمل على اعادة بنائها وهيكلتها من اجل ضمان تأكلها الداخلي اجتماعيا وثقافيا وسياسيا بما يسمح من مواصلة سياسة النهب التي تتعرض لها ثرواتها. فالهدف الحقيقي من احتلال العراق هو فرض واقع سياسي جديد يرتكز على اعادة تقسيم الأمة بما يتماشى وتحقيق الهدف وهو استكمال مشروع القضاء على الرباط القومي العربي وهذا لم يكن بجديد فهو ذات المشروع الذي بدأته الموجة الاستعمارية الأولى. الجديد ان هذه الموجة الجديدة تغلف نواياها بشعارات الديمقراطية وحقوق الانسان. الولايات المتحدة الأمريكية تعمل على استكمال المهمة التي فشلت أوروبا في تحقيقها في العقود الماضية.

وكما عودتنا قوى الاستعمار العالمي فإن مثل هذا الهدف وضعت له عناوين جديدة جذابة، فبعد حملة تحضير الانسانية التي قادها الرجل الأبيض. هاهو الرجل الأبيض يستعمر الشعوب لاعادته للديمقراطية وحقوق الانسان ما اشبه الليلة بالبارحة، هاهو التاريخ يعيد نفسه في شكل مهازل جديدة، فهذه العناوين البراقة مثل نشر الديمقراطية، وإشاعة الحرية، وإزالة الديكتاتورية، وإيجاد اقتصاد حر إلخ.. في "مبادرة الشراكة الشرق أوسطية من أجل الديمقراطية" التي أعلنتها كولن باول في ١٢/١٢/٢٠٠٢م، ليست الا الغطاء الذي يخفي الأهداف الحقيقية للادارة الأمريكية.

من أجل "اسرائيل"

فهذا الأمر الواقع الجديد هو أن تصبح فيه "اسرائيل" جزءاً من هذه المنطقة يلفها مشروع شرق أوسط كبير، يكون قد قطع مع فكرة العروبة والتوحيد العربي. بل انهم سيسعون الى ان تكون المستفيد الأول من عملية تغيير الخارطة الاقليمية ذلك أنه سيتم تزويدها بالنفط العراقي من خلال إحياء خط البترول كركوك-حيفا الذي كان يزود فلسطين بالبترول، وتوقف بعد عام ١٩٤٨م. وستعمل على استغلال الثروة المائية التي يتمتع بها العراق، فيذهب بعض المحللين الى القول إنه سيتم تزويدها بالمياه عن طريق أنبوب يمتد من الفرات ودجلة إلى صحراء النقب، وذلك لأن العراق يعتبر أغنى اقليم عربي بالمياه. وستسعى الى تهجير فلسطينيي الضفة الغربية وغزة من أجل التخلص من القنبلة الديمغرافية الفلسطينية التي تهدد "اسرائيل" من الداخل حسب الرواية الصهيونية ويمكنها، من الاستيلاء على مزيد من الأرض العربية في فلسطين.

الصراعات الداخلية

في هذا المشروع يكون حكام المنطقة قد أعلنوا توبتهم من فكرة العروبة، وأعلنوا صراحة متصلهم من هويتهم ومن انتمائهم القومي، واستعدادهم لتقبل كل الشروط. مشروع "الشرق الأوسط الكبير" يهدف أول ما يهدف الى ضرب فكرة المقاومة العربية. ويفتح الأبواب على مصاريعها أمام الاقتتال العربي بتفجير بؤر صراعات قبلية وعرقية في كل مكان. فالقاء نظرة سريعة على الوطن العربي نرى ما يتم اعداده في كل اقليم عربي، فهذه المرحلة الجديدة التي يعد لها الوطن العربي سترتكز على خلفية فكرية اساسية في استراتيجية قوى الهيمنة في تعاملها مع الملف العربي يرتكز على قاعدة اساسية وهو مبدأ التفيتت ولكن هذه المرة سيكون تفتيتا اكثر خطورة لأنه يرتكز على قاعدة أخرى وهي قاعدة التآكل الداخلي، فيتحول كل اقليم بذاته الى بؤرة من بؤر الصراع متعدد الأوجه بما يعني من ارتهان الاقليم لفترة طويلة لصراعات داخلية على اسس قبلية وطائفية وعرقية لفترة طويلة تسمح فيها للقوى المدعومة من الخارج بضرب العروبة، فهو ليس بالتقسيم الذي ينهي الصراع بل التقسيم الذي يستهدف التفتيت كهدف بعيد. فلا يخلو اقليم الا ويتم فيه اظهار الخصوصيات ماتحت القطرية من قبلية وعرقية وطائفية تحت اسم الديمقراطية وحرية الانسان. يكون هذا التاكيد في نفس الوقت مصحوبا بمحاولة تشويه فكرة العروبة والوحدة القومية. على سبيل المثال ورد في الوثيقة التي تم نشرها والتي تم الاتفاق عليها بين القوى السياسية في العراق و التي قبلت التعامل مع الاحتلال الآتي: "... (٨) استمرار رفض الثقافة القومية العربية ومحاربة أي قيم ومثل لها مع التأكيد على دور الأقليات

والطوائف في بناء العراق الجديد على ان يرافق ذلك احياء الثقافات القومية القديمة التي سبقت الغزو الاسلامي للدول العربية والاسلامية الحالية...»، (البصرة نت او المسيرة. دوت. كوم).

رفع السقف

لاشك أن مواجهة دعاة الغربنة (أوربة وأمركة) وقادة التفئيت والتجزؤ (العرقى أو الطائفي) ستكون من أخطر المواجهات في حياة الأمة، لأن القضية مرتبطة بجوهر وجود الأمة العربية وشخصيتها وهويتها من جهة، ولأنها معركة تأتي بعد هزائم متكررة. فالعدو في أقوى عنجهيته وأمتنا في أتعس مراحل ضعفها. لذلك يجب رفع سقف الواجب المطلوب من أبناء الأمة العربية نحو أمتهم، ولذلك ايضا نرى أن المطلوب هو الانحياز إلى الأمة وثوابتها. وأن الحياد في هذه المعركة هو انتصار للقوى التي تريد استهداف الأمة العربية..، وأبرز هذه الثوابت: بناء المشروع الحضاري العربي، من خلال الدفاع عن اللغة العربية باعتبارها اللغة القومية، رفض محاولات ضرب مكون أساسي من مكونات أمتنا وهو الدين الاسلامي الحنيف عبر تقديم قراءة جديدة انسانية ونامية، متحررة وتقدمية. واعتبار تحرير أي أرض عربية، والحفاظ على سلامتها واستقلالها واجب قومي مفروض على كل عربي... فلم يعد مقبولاً من أحد يدعي الانتماء إلى هذه الأمة فرداً أو جماعة أو حزباً، ويقبل التعامل مع المستعمر أو يشكك في ثوابت الأمة تحت أية دعوى. أو يوالي عدواً للأمة، أو يتعاون معه، أو يستهزئ بالمقاومة وبفكرة الاستشهاد، أو يستبشر بالاحتلال إلخ... إن معركة الأمة العربية مع الذين يستهدفون وجودها لن تكون سياسية فحسب بل هي مفتوحة على كل الواجهات. وكل عربي عليه المساهمة بما يقدر لمواجهة هذا الظلم المفروض علينا. لذلك نرى ان من أوجه الدفاع عن العروبة هو استرجاع الامكانيات المادية العربية التي تخضع للسيطرة الأجنبية، فمن واقع الاكتواء من تجارب الفشل الاقليمي في الماضي القريب فإن القطرية عجزت في الدفاع عن الامكانيات المادية المتاحة. وتعرضت هذه الدول لعملية ضغط وابتزاز من قبل حفنة من مصاصي دماء الشعوب وخضعت لاملاءات هذه القوى الرأسمالية العاتية. ولم تتوان هذه القوى في وضع يدها وبسط سيطرتها بالحديد والنار على موارد النفط العربي لأنه يشكل عصب اقتصادها دون الاكتراث بأي مانع أخلاقي أو قانوني. هذا يعني ضرورة قطع الطريق على قوى الهيمنة الأجنبية، فالديمقراطية هي من مضامين الدفاع عن العروبة وهي لا تكون كذلك وتعبيراً عن ارادة الشعوب الا اذا كانت في مواجهة الاستبداد السياسي الذي ادى الى شلل الجماهير العربية واخراجها من ساحة الصراع. فالدفاع عن العروبة يعني الدعوة الى دستور عربي واحد ديمقراطي يضمن للفرد والانتماءات ماتحت القومية حرية الوجود والمساهمة الايجابية في البناء الوحدوي العربي. ذلك ان الانتماء القومي ليس انتقاصاً بل هو اضافة

كما ان الانتماءات السابقة لا تلغي العروبة فإن العروبة هي عملية اضافة للانتماءات السابقة. هي مقدرات جديدة للتححرر وامكانيات لم تكن موجودة.

ان معركة الدفاع عن العروبة كمبدأ وانتماء مرتبطة موضوعيا بمحاور الصراع الأخرى التي تشق الوطن العربي. فالعروبة ذات مضامين اجتماعية وسياسية تستجيب لحاجيات الشعوب العربية. فالدفاع عن العروبة هو دفاع عن الديمقراطية في الوطن العربي. هو دفاع عن مبدأ مقاومة قوى الهيمنة العالمية.. فالذين يشككون في هويتنا وفي قيمنا وثوابت أمتنا، لا يترددون في اتهام العروبة بالاستبداد والدكتاتورية، فعندما تنتصر الأولى تنتفي الثانية. فالعروبة هي فكرة الجماعة، اما عن الدكتاتورية فهي فكرة الفردية في ابشع مظاهرها..

لا شك ان هذا المخطط الجديد القديم التي تسعى الى فرضه قوى الهيمنة العالمية والأهداف التي رسمته لهذا المشروع يعتبر من أكبر التحديات وأخطرها على أمتنا العربية في تاريخها كله، وهذا يستدعي أعلى درجات المقاومة الواعية من قيادات أمتنا ومفكريها ودعاتها وجماعاتها وأحزابها لإفشال مخطط التفتيت الثاني، فلئن فشلت في تحقيق أهداف الأمة في القرن الماضي واكتفت بالصمود فإن المطلوب هو الاستفادة من مراحل الصراع السابقة وفهم النواقص والسلبيات التي حلت بحركتنا والأخطاء التي أصابت مسيرتنا حتى نتمكن هذه المرة من تحقيق النصر المطلوب. لذلك يجب أولاً التمسك بثوابت هذه الأمة في عملية الصراع مع دعاة التغريب وتدمير البناء القومي. وحتى نتمكن من تحقيق النصر المطلوب في المعركة الجارية الآن على امتداد الوطن العربي فاننا نرى ضرورة التفكير الجدي والعميق في كل التجارب الماضية بعيدا عن هالة التقديس التي صبغت الخطاب العربي عموما والسياسي خصوصا. من خلال تحديد الوسائل الكفيلة بتحقيق الأهداف الكبرى بعيدا عن أسلوب التراشق والتتصلل من المسؤوليات. وذلك من خلال تأطير أفراد الأمة في حركة جماعية تقطع مع الشللية والفردية الضيقة. فمن الواضح والجلي أن المرحلة الماضية غيبت فيها الجماهير العربية على ساحة الفعل. وتوهمت كل فرقة سياسية أنها الفرقة الناجية وانها ذات رسالة ربانية عليها تحقيقها لا مع الآخر الذي هو جزء من هذه المجموعة ولكن باعتباره المؤهل الأوحدهم والوحيد، وأن تحقيق الأهداف لا تتم الا بالقضاء على جزء منه وهو الآخر، فكان الاقتتال العربي العربي وكان التناحر العربي العربي وغابت مصلحة الأمة وأهدافها العظيمة وسط ركام من الصراعات الحزبية الضيقة.

والمفروض أن يكون التنافس في أي منهم أكثر وفاء و إخلاصا لهذه الأمة العربية. لا خيار الآن عن العمل الجماعي وبخاصة في هذه الظروف الصعبة المحيطة بالانسان العربي والمملوءة بالمحن والفتن من كل نوع، لذلك لا بدّ من إشاعة مناخ العمل الجماعي العربي في كل المجالات والقطاعات وضرورة

كسر حاجز الغربة الذي بني بين شباب الأمة ومناضليها، بين مجمل مكوناتها الاجتماعية والفكرية. المطلوب من كل عربي الانتقال من الفردية القائلة إلى الجماعية البناءة، فالأمة لا تستطيع مواجهة أعدائها، ولا حل مشاكلها، ولا بناء مستقبلها إلا من خلال بناء جماعي عريض يستوعب معظم أفراد الأمة ومكوناتها.

هذا بعض ما نراه من واقع أمتنا العربية وهذا بعض ما يظهر لنا من مخططات الاعداد ان فكرة العروبة تواجه خطرا محققا، فعلى كل واحد منا أن يختار موقعه وخذقه فلا وجود لخيار ثالث حسب مانرى، فالسؤال هو اما أن تكون أمة عربية وبالتالي حقها في بناء دولة قومية ككل الأمم جميعا. واما أن تكون مجموعة دويلات طائفية وقبلية لاحول لها ولاقوة تعيش في مدار قوى الهيمنة العالمية، وتقتات من فتاته